# قراءة في تراث الشيخ أبي راس الناصري "المخطوط"

# كتاب «الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى» نموذجاً

# A reading in the heritage of Sheikh Abu Ras al-Nasiri, the "manuscript", the book "Al-Hawi to reject from monotheism, Sufism, saints and fatwas" as an example

**بلبشير عمر** *

**جامعة وهران 1 (الجزائر)**

**ملخص:**

إن الموضوع الذي نقترحه في هذه الدراسة يبحث في تراث أبي راس الناصري المعسكري (1165-1238هـ/1751-) المخطوط، ذلك أن مترجمنا واحدا من الأئمة المكثرين من التأليف، كيف لا ؟ وهو الذي قال في حقه شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله: "أكثر أبو راس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المائة"، وعن طبيعة مؤلفاته يشير سعد الله "وغلب على أبي راس في تآليفه جميعا طابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشّى الشروح، بل جعل للمتن الواحد أكثر من شروح، واعتمد على حفظه فأكثر في التآليف من التكرار والاستطراد، وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تماشيا مع بضاعة العصر من جهة وترويحا عن النفس من جهة أخرى"، وأما عن تنوع الحقول المعرفية التي ألف فيها أبا راس يقول مؤرخنا "ولم يركز أبو راس جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا.

**الكلمات المفتاحية:** أبو راس؛ المخطوط؛ الحاوي، التراث، الجزائر.

**Abstract:**

The topic that we propose in this study is looking at the military heritage of Abu Ras al-Nasiri (1165-1238 AH / 1751-) the manuscript, because our translator is one of the many imams of authorship, how not? And he is the one who said the Sheikh of historians, Dr. Abu Al-Qassem

*المؤلف المرسل

Saad Allah: “Abu Ras has a great number of authorships, no one comparable to it among the Algerians according to our knowledge, with the exception of Ahmad Al-Bouni, whose works exceeded one hundred.” All have the character of the era (the late Ottoman era), so he explained the texts and the brutality of the commentaries. Rather, he made a single piece of text more than explanations. On the diversity of fields of knowledge in which Abu Ras was composed, our historian says, "Abu Ras did not focus his intellectual effort on a specific discipline, but dealt with almost all disciplines.

**مقدمة:**

كان للجزائر عبر العصور والأجيال – خاصة منذ أن كرّمها الله بنعمة الإسلام – تاريخ مجيد حافل، ولأعلام رجالها وأئمتها وأمرائها في الحضارة الإسلامية أثر بعيد، فهم الذين أسسوا المدن التاريخية ك "تيهرت" "قلعة بني حماد" "بجاية" "تلمسان" وغيرها من الحواضر والمدن، وأنشأوا الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا، وأقاموا دور الكتب والخزائن، فأصبحت على مرّ الزمان منبعاً للعلم، ومناراً للمعارف والآداب، هوت إليها أفئدة أعلام الفقهاء والمحدثين والمفسرين، والأدباء والكتاب والشعراء، والمؤرخين والمتصوّفة.

وتاريخ هؤلاء الأعلام من أبناء الجزائر موزّع في كتب التاريخ والتراجم والأدب والمناقب، وباستثناء القليل من هذه الأعمال، فإن الجزء الكبير منها لازال مخطوطاً يحتاج إلى تنقيب وتحقيق.

إن الموضوع الذي نقترحه في هذه الدراسة يبحث في تراث أبي راس الناصري المعسكري (1165-1238هـ/1751-)[1] المخطوط، ذلك أن مترجمنا واحدا من الأئمة المكثرين من التأليف،

[1]– هو محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي: "العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفّق اللافظ، من هو ليث الدّين، أوثق أساس، وأضوأ نبراس، الإمام القدوة المتفنّن"، وُلِد "بنواحي مدينة معسكر بين جبل كرسوط و(هونت) يوم 8 صفر1165 هـ/ 27 ديسمبر 1751م، من أمّ اسمها زولة". وتوفي، رحمه الله، يوم 15 شعبان 1238هـ/ 27 أفريل 1823م، و"دُفن بمعسكر على شاطئ النّهر الفاصل بين داخل البلد وقرية بابا علي. وعليه بناء مشهور"، ينظر في ترجمته إلى: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف: ج2/ ص167– د أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: ج12/ ص391.

كيف لا ؟ وهو الذي قال في حقه شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله: "أكثر أبو راس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء أحمد البوني[2] الذي تجاوزت تآلبفه المائة"[3]، وعن طبيعة مؤلفاته يشير سعد الله "وغلب على أبي راس في تآليفه جمبعاطابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشّى الشروح، بل جعل للمتن الواحد أكثر من شروح، واعتمد على حفظه فأكثر في التآليف من التكرار والاستطراد، وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تماشيا مع بضاعة العصر من جهة وترويحا عن النفس من جهة أخرى"[4]، وأما عن تنوع الحقول المعرفية التي ألف فيها أبا راس يقول مؤرخنا "ولم يركز أبو راس جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا"[5].

لقد كان التأليف مجالاً هاماً، بذل فيه "أبو راس الناصري" جانباً كبيراً من جهده العلمي، وقد أثمر هذا الجهد تصنيف عديدة في القرآن وتفسيره، والحديث وعلومه، والتوحيد ومنهجه، والفقه وقواعده، والتصوّف وسلوكه، والمذاهب الفقهية واختلافها، ولغة العرب ونحوها، كما ألف في التاريخ، وهذا ليس بغريب على عالمٍ تصدّر للإفتاء على المذاهب الأربعة ووصف بأنه أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه، وكتبه موزعة بين ما هو مطبوع، والجزء الغالب منه لا زال مخطوطاً يمكن التعرف عليه من خلال مّا أورده في كتابه "**فتح الإله**"، فقد عقد باباً –وهو الخامس– خصّه لذلك وسمّاه: "**العَسْجَد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز**"[6].

---

[2]– أحمد بن محمد بن ساسي التميمي البوني (1063-1129هـ/1652-1726م) من كبار فقهاء المالكية، عالم بالحديث، ولد ببونة بعنابة شرق الجزائر، كان كثير التأليف.ينظر عادل نويهد، معجم أعلام الجزائر من الفتح إلى الوقت الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليق والترجمة، 1980م: ص 12، 27، 28.

[3]– ذكر هذا الكلام في تصديره لـ"**فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**" لأبي راس الناصر، **دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د.تا): ص 5**.

[4]– المصدر نفسه والصفحة.

[5]– المصدر نفسه والصفحة.

[6]– أبو راس الناصر "**فتح الإله** ": ص179-182.

ولقد لقيت مؤلفات "أبي راس الناصر" عناية واهتمام سيما من قبل المستشرقين الفرنسيين من حيث ترجمتها ونشرها، فقد ترجم الضابط في الجيش الفرنسي السيد أرنو (**Arno**) كتابه "عجائب الأسفار" ونشره فصولا في المجلة الإفريقية (**Revue Africaine**)[7]، كما ترجم له الجنرال "فور بيقي" كتابه "الحلل السندسية"، ونشره بالجزائر سنة 1903م، وقام نفس المترجم بعرض مطول لكتاب "**فتح الإله**" ونشره في "المجلة الأسبوية" سنة 1899م[8]

وفي مايلي عرض لعدد من المخطوطات مع تصنيفها حسب العلوم، وذكر أماكن وجودها، وإعطاء نبذة عنها:

❖ مجال تفسير القرآن الكريم:

- كتاب الإبريز والإكسير في علم التفسير، ويظهر أنه هو نفسه الذي سماه أبو راس في فتح الإله بـ"مجمع البحرين، ومطلع البدرين، بفتح الجليل، للعبد الذّليل، في التّيسير إلى علم التّفسير"[9]، وقد قال عنه: "في ثلاثة أسفار، ما أبركها قربى، في كل سفر عشرون حزبا، طالما تكلمت فيه، نقلا عن كتاب شيخ أو فيه، مع الزمخشري والبيضاوي، وابن عطية، وغيرهم، فيالها من عطية".

توجد نسخة مخطوطة بالمكتبة البلدية لولاية معسكر (الجزائر)، تقع هذه النسخة في 74 صفحة تبدأ مقدمتها بعبارة "الحمد لله مُلَقِح الذهن العقيم بنتائج التفسير، ومنقح الجسم السقيم بطب الهداية والتيسير.....

المخطوط مكتوب بخط مغربي سهل القراءة وهو في حالة جيدة، الفواصل كلها ملونة وكذالك بداية الفقرات كما أن الآيات القرانية مكتوبة باللون الأحمر وهو من الحجم المتوسط.

وفي هذا المخطوط قام أبو راس بتفسير القران الكريم من الفاتحة إلى الآية 137 من سورة البقرة.

---

[7] - ARNAUD, *Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed* .... (Alger, 1885, in-8°, VIIl-313 p.) ...

[8] - أبو القاسم سعد الله، تصدير لتحقيق "**فتح الإله**": ص 06.

[9] - أبو راس الناصر، **المصدر السابق**: ص179.

كما أن المؤلف تناول في مقدمة هذا الكتاب منهجه في تفسير القران الكريم، وقد اعتمد على تفسير القاضي البيضاوي المسمى "بأنوار التنزيل"

– وله تقييد على نظم الخرّاز"[10].

وتجد الإشارة إلا أن "أبا راس" (رحمه الله) لم يكن في تفسيره، مجرد جامع لأقوال من سبقه ولا مجرد مقلد، بل وجدناه يناقش علماء التفسير الذين سبقوه ويقرر ما يراه صوابا.

❖ مجال الفقه:

– "درّة عقد الحواشي، على جيد شرحي الزّرقاني والخراشي" في ستّة أسفار:

من خلال نسخة مصورة عن مخطوطة موجودو بزاوية الهامل (الجزائر)، تبين لنا أن موضوع هذه المخطوطة في الفقه المالكي، وهي مكتوبة بخط مغربي تصعب قراءة بعض فقراته لصغر حجم خط هذه النسخة، وفيه بعض التعقيبات على حواشيه.

والمخطوط يتألف من ستة أجزاء كبار حيث يحوي الجزء الأول 397 لوحة على وجهين.

وقد بدأ أبو راس كتابه بعبارة مفادها:" الحمد لله الذي جنب الأكنة قلوب أحبائه ليفقهوا، وحظ على نفورهم للطلب ليتفقهوا ليكونوا من خيار أهل الإسلام إذا فقهوا، ثم مدح قوما بالحكمة وقال في آخرين إن شر الدواب عند الله الصم البكم "...( ورقة 1و).

وينتهي بعبارة: "انتهى الجزء الأول من واسطة عقد الحواشي على جيد شرح الشيخ الخرشي، اللهم ألبسها جلباب القبول بجاه النبي الرسول" (ورقة 397و).

[10] – الخراز محمد بن محمد الأموي الشريشي المعروف بالخراز، والكتاب عنوانه "مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن"، واشتهر باسم الخراز، وجزء منها خاص بالضبط يسمى ضبط الخراز، وهو أرجوزة طويلة تتكون من 608 بيت، نظمها سنة (703هـ)، خصص منها صاحبها الخراز 454 بيت للرسم، والباقي وهو 154 بيت للضبط، واقتصر الناس عليها فاشتهرت، وهو الجزء الذي شرحه التنسي بعنوان "الطراز في ضبط الخراز"، إبراهيم بن أحمد المارغني التونسي، دليل الحيران على مورد الظمآن، تحقيق جمال السيد رفاعي الشايب، ط1– المكتبة الأزهرية للتراث، 2011م: ص11.

وقد أورد المؤلف تعليقاً حول هذا الكتاب في "فتح الاله ومنته "بقوله:" نظم عجيب في فروع قليل نَصُّهاَ مع كثرة الوقوع".

- وله كذلك: كتاب المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.
- رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.
- جزيل المواهب، في اختلاف الأربعة المذاهب"، ذكره الحفناوي[11].

❖ وفي علم الأصول:

- حاشية على شرح المحلى[12] لجمع الجوامع.
- قاصي الأوهام والتوحيد.
- تشنيف الاسماع في مسائل الإجماع.

في التاريخ:

- القصص المغْرِب والخبر المعرب عن الحال المغْرِب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب:

توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية "الحامة" الجزائرية، تحت رقم 3182، ومن خلال مخطوط مصور في 131 ورقة على وجهين، يتضح من عنوانه أن الكتاب يتناول موضوعاً في التاريخ حول فتح وهران من قبل الباي محمد بن عثمان الكبير سنة1792م.

---

[11]- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف: ج 2/ص 167.

[12]- يعتبر كتاب المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار من أهم كتب بن حزم، وقد شهر به وأعتبر بذلك ناشر المذهب الظاهري، الذي يأخذ بظاهر النص ومدلوله اللفظي والمعنوية، ومجتهدا لا يعتبر القياس في المعاني ألبته، ويعتبر القياس اللفظي إنما هو دلالة اللفظ أو دلالة المعنى من اللفظ، وإنما الخلاف بين أهل أصول الفقه في الألفاظ، ولا يعتبر العلة ولا يحكم إلا بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة، والكتاب ثروة فقهية وموسوعة جامعة في الفقه المقارن حوت ما يعادل 2312 مسألة بدأها المؤلف بالعقائد وأنهاها بمسائل التعزير، واستعرض ابن حزم خلالها آراء الفقهاء والمجتهدين جميعا قبل أن ينقض عليهم مبديا رأي، ابن حزم، الإمام عليّ بن أحمد بن سعد بن حزم (ت456هـ/1064م)، المحلى في الخلاف العالي في فروع الشافعية، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الصديق، الطائف، (د.تا).

يبدأ بـ:" الحمد لله الفاعل في خلقه مايريد وبالنصر والخذلان فريد، المرجو لإدالتنا على العدو الكافر المريد، الصادر عن إرادته كل مازان وشان" (ورقة 1 و)....

وقد جاء في خاتمة هذا الكتاب" فكان رحمه الله يغاديها بالحرب ويزوحها ويطرقها بالجيش ويعالجها ويقاتلها ويكافحها حتى دخلها صلحا ضحى الإثنين السادس من رجب الفردالحرام سنة1256 اللهم افتح لنا الاندلس كما مننت بفتحها علينا يارب العالمين" (ورقة 131و).

مجال التصوف:

- شرح غوثية الشيخ سيدي عيسى بن موسى التجيني وهي قصيدة في التصوف، غير أن "أبا رأس" لم يذكره في كتابه "فتح الإله"، تقع المخطوطة التي اطلعنا عليها في 37 ورقة توجد بالمكتبة البلدية لولاية معسكر (الجزائر) مصدرها خزانة المرحوم الشيخ "البشير" بمدينة البرج ولاية معسكر، كما توجد نسخة أخرى بخزانة السيد "مختار بوعناني" ويقع على 64 صفحة، وتتوفر المكتبة الوطنية الجزائر "الحامة" على نسخة من هذه المخطوطة تحت رقم 3326 مجموع 4.

تتناول هذه المخطوطة –من خلال شرح "أبي راس" للقصيدة– موضوع التصوف، وتحدث عن مقامات الأولياء والصلحاء.

صاحب النظم هو الشيخ جمال الدين سيدي عيسى بن موسى بن أبي بكر مسعود بن أبي بكر بن موسى التيجاني نسبة لبني توجين وهم بطن من بطون زناتة كما تقدم في المخطوط.

يبدأ المخطوط بالعبارة التالية: "الحمد لله الذي جعل من عباده أهل إغاثته، تفضلا منه لا بسبب ولا وراثة وصرفهم بعد الموت فيحضرون في أقرب وقت بعجيب دلالته"...(ورقة 1).

بخط مغربي واضح وهو من الحجم الكبير.

قيقول: " فقد ضربت من بينها بسهم مصيب، وأخذت من كل تحفة نصيب، وحزته بالفرص والتعصيب، ونثرته بردة المحامد، على الأكرام الأماجد، اللذين خصهم الله بتهذيب الفطرة...

ونهايته:" وأعلم أن الأمور الداعية للتأليف بأسرها تستحضر في سبعة فلا يؤلف عالم عاقل إلا لجلها، إما لشيء لم يسبق إليه يعترضه، أو ناقص يتحملها، ومغلق يوفى أركانها.... والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تم شرح الشيخ سيدي محمد أبي راس بن ناصر عن غوثية أبو مهدي السيد عيسى بن موسى التجاني رحمه الله على يد هذا الكاتب محمد الاكحل بن مصطفى بن ءامين بن القاسم على يد محمودي البشيربن قدور بن البشير يوم رجب الفرد سنة 1415هـ/ الموافق ل 12 ديسمبر 1914.

هذه بعض مؤلفاته المخطوطة نختمها بالحديث عن كتابه:

- **كتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي:**

مخطوط في نسختين خطيتين تمكنا من الإطلاع عليهما:

النسخة (أ) تبدأ بالعبارة التالية:" الحمد لله الذي جعلنا من أهل التوحيد المتفرع فرعه في السماء الثابت الأصل الاثيث، وجنبنا دعوى الفرق الضالة من الاثنينية والتثليث" .... (ورقة 1).

تقع النسخة الأولى في 133 صفحة وهي غير تامة بينما تقع النسخة (ب) فيما يبدو في 202 صفحة أوراقها مبعثرة في حاجة إلى ترميم، وبعض الأوراق غير كاملة وممزقة إلا أن النسختين مكملتين لبعضهما مما يسمح بإخراج مخطوطة تامة.

يتضمن الحاوي مباحث مختلفة كما يدل على ذلك عنوانه، وقد رتب كتابه على ثلاثة محددات منهجية: جمع، وترتيب، وتعليق، وعنوان الكتاب دال على هذا المنحى المنهجي، وإن كان الأمر لا يبدو بقوة، وفي هذا يشير المؤلف:

"جمعت في ذلك تأليفا يسر الله تمامه، وقرب مرامه، وقد سميته: (**الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي**)، منقحا ذلك من دواوين طار بها في الناس طائر الإشتهار، حتى صارت في ابتهار وانبهار، كشمس نهار، وتخيرت منها ما لا يستقل بفوائده، وحصر فرائده كل مختار، ويضمحل لها كل معارض وينهار، مما تدعو إليه ضرورة الموضع، وحلاوة الموقع، وما قصدت بذلك إلا وجه الله

الكريم، وإحسانه العميم، ورحمته التي اشتق لنفسه منها أنه الرحمن الرحيم، فهو الذي له الطول، وبيده القوة والحول، والتوفيق والاهتدا، والمعونة في الغاية والابتدا، وإليه الملجأ والمعول، وبه أستعين وعليه سبحانه أتوكل، فنقول وهو حسبي ونعم المأمول، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره".

تناول أبو راس في هذا الكتاب نبذاً عن أربعة مباحث، وهي: **التوحيد، والتصوف، والأولياء والفتاوى**، وقد حددها في المقدمة، كما أشار إلى المقصد من هذا التأليف بقوله:

"أما بعد: فيقول المقل القاصر، أبو رأس بن الناصر، أظفره الله بالآمال، ووفقه لصالح الأعمال: إن أولى ما يكون للنفوس به الإمتاع، وتميل إليه الأسماع، دراسة العلم، وتحصيله بالتأليف والحفظ والفهم، وكان أولى ما يجب تقديمه، ويتأكد علمه وتعليمه، مبحث **التوحيد** الذي هو بغية العارف والسالك والمريد، وبيان منهج **التصوف** الذي إليه التشوف، **وفتاوى** ترفع الإشكال، وتدفع القيل والقال، **وأولياء** جمة، لأن بذكرهم تتنزل الرحمة"[13].

هذه القضايا هي نفسها التي أجمع عليها المغاربة في صياغة تدينهم، وهو جوهر ما أكدا عليه الإمام عبد الواحد بن أحمد بن علي المالكي المعروف بابن عاشر الأندلسي المتوفى سنة (1040هـ/1630م)، صاحب كتاب "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" المعروف اختصاراً بمتن ابن عاشر، والذي يؤكد على التزاوج بين التصوف المعتدل على طريقة الجنيد والفقه المالكي والعقيدة الأشعرية.

| | |
|---|---|
| يَقولُ عَبدُ الوَاحِدِ بْنُ عَاشِرِ | مُبتدِئًا بِاسمِ الإلهِ القَادِرِ |
| الحَمدُ للهِ الذِي عَلَّمَنَا | مِنَ العُلومِ مَا بِهِ كَلَّفَنَا |
| صَلَّى وَسَلَّمَ عَلى مُحَمَّدِ | وَءالِهِ وَصَحبِهِ وَالمقتَدِي |
| (وبَعدُ) فَالعَونُ مِنَ اللهِ المجِيدْ | فِي نَظْمِ أبْيَاتٍ لِلأُمِّيِّ تُفِيدْ |

[13]– الشيخ محمد أبي راس الناصر المعسكري، كتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي: ورقة رقم: 01.

| | |
|---|---|
| فِي عَقْدِ الأَشْعَرِي وفِقهِ مَالِكْ | وَفِي طَرِيقَةِ الجُنَيْدِ السَّالِكْ |

- **المبحث الأول. التوحيد:**

ومن جملة المسائل التي عالجها في هذا المبحث: شرحه معنى "لا إله إلا الله"، وحقيقة الإيمان، ومحاولة التوفيق بين مذهبي السلف والخلف في الصفات، وذكر اختلاف الأشعرية والماتريدية في صفات الأفعال والأسماء، حكم الاقتداء بأفعال الله، والاتصاف بمثل أوصافه على ما يليق بالعبد.

وحول **معنى لا إله إلا الله: جاء كلام أبي راس:**

**فصل في النفي في لا إله إلا الله،** وقد وقع عنه سؤال من بعض المغاربة لعلماء فاس ونصه:

"يا أساة الداء ومصابيح الدجى، ومنارات الهدى، أبقاكم الله في سماء المعارف شمسا منيرة وعين الحضرة العلية بدوام بقائكم قريرة، سيدنا عبد القادر الفاسي ومن معه من العلماء بحضرة العلية بفاس المحروسة بالله، جوابكم عن المسألة الشهيرة اشتهار الشمس وقت الظهيرة بين الشيخ آبي عبد الله اليسيقني وبين الشيخ أبي محمد الهبطي[14] في المنفي في الكلمة الشريفة هل هو الآلهة المعبودة بالباطل أو المعبودة بالحق المقدرة سوى المفرد الخالق العالم ؟

فعلى ما قرر الشيخ الإمام اليسقيني من أن النفي إنما تسلط على المعبودة بالباطل تنزلا لها منزلة العدم، وتنظيرها بقوله (لا ريب فيه) فما معنى الاستثناء؟ هل متصل أو منفصل؟ وكيف يقرر ويلتئم مع قولهم: الاستثناء من النفي إثبات؟ وما معنى القصر والحالة هذه؟،[15] وهل هذه الطريقة توصل إلى الحق

---

[14]– هو الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي، ولد بضواحي طنجة سنة 890هـ/1485م، ممن جمع بين الفقه والتصوف، عده صاحب التحفة من مشايخ الطبقة الثالثة من أتباع الجزولي، صنف كتباً أهمها "الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة"، والألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة فيما أوقعوه من التغيير في الملة الإسلامية، توفي سنة 963هـ/1556م، ينظر في ترجمته: ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973م: ج2/ص440-441، ينظر كذلك: محمد المهدي الفاسي، التحفة الصديقية من مشايخ الطبقة الثالثة من أتباع الجزولي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك537: ص32.

[15]– الشيخ محمد أبي راس الناصر ، كتاب الحاوي: ورقة رقم: 62.

كالطريقة التي قررها الإمام الشيخ السنوسي[16] أو هي باطلة؟ وعلى الأول فما يلزم ما ألزم من سلك هذه الطريقة الكفر الصراح والكذب الغير المباح؟

فأجاب الشيخ عبد القادر بما نصه: إن الكلام على لا إله إلا الله حسبما وقع النزاع فيها بين الطائفتين المذكورتين، فأقول: لا شك أنه وقع بينهم في ذلك كلام كثير وخبط وفيه ما لا يوقف فيه على محصول ولا يساعده معقول ولا منقول

اعلم أن معنى الإله لغة هو المعبود بالحق بذلك جاءت نصوص الأئمة المرجوع إليهم في ذلك، قال في القاموس: كل ما اتخذ معبودا إله عند متخذه، وقال في الصحاح: الإله بمعنى مألوه أي معبود وأله بفتح اللام عبد والآلهة الأصنام (سموا) بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها، وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم، لا ما عليه الشيء في نفس الأمر فالمعبود بحق مساو للمستحق في العبادة.

- **المبحث الثاني. التصوف:**

يبدو أن الموضوعات التي تناولها المؤلف في هذا المبحث تشكل في مجملها المسائل التي حصل فيها : تباين الإختيارات بين الفقهاء والمتصوفة، وهي قضايا يستشف منها طبيعة العلاقة وحدودها بين الطرفين، ومن خلال تفصيلات هذا المبحث يظهر الجهد التوفيقي لأبي راس الناصر في مساعيه للتقريب بين طريقة الفقهاء والمتصوّف، على مسلك التوفيق بين أصول الفقه وأصول التّصوّف، ومن جملة المسائل التي طرحت في هذا المبحث "ضرورة الشيخ لسلوك طريق التّصوّف" حماية له من الزّيغ عن مبادئ الشّريعة

[16]– هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي الحسني من كبار علماء تلمسان (830 أو 832-895هـ/1490م)، أخذ عن الثعالبي والقلصادي وابن مرزوق الحفيد وغيرهم، خلّف السنوسي تصانيف جليلة تنبئ عن مشاركة واسعة في العلوم، كيف لا ؟ وهو صاحب العقائد المشْهورة، فقد انفرد بمعرفة علم التوحيد، له العديد من المؤلفات، ينظر في ترجمته: التنبكي، نيل الابتهاج: ج2/ص251-260، القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، دار الغرب الإسلامي 1983م: ص252-عبد الله الملالي، كتاب المواهب القدسية في المناقب السنوسية، خزانة محمودي البشير، ولاية معسكر، الجزائر: ورقة رقم 82-128، فهرس الفهارس: ج2/ ص999، ابن مريم، البستان: ص374-389.

وأحكامها[17]، كما عالج في هذا المبحث صفات الشيخ المربي وآدابه المريد، والحديث عن أصل الخرقة، كما أشار أبو راس إلى انحراف بعض صوفية زمانه بدون ذكر الأسماء، وذكر بدعهم كالرقص أثناء الذكر، وعقد فصل في شرح ألفاظ في اصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي رحمه الله، وغيرها من المسائل[18].

وفي التصوّف: يرى "أبو راس" أنه لا يمكن لأحد الوصول إلى المقامات العالية إلا بجذب، أو بالسلوك على يد شيخ صادق، جاء هذا الحكم في سياق جواب عن سؤال رفع إليه:

وقع السؤال عما يصل به العبد إلى ربه، فكان الجواب بأنه لا يصح لأحد الوصول إلى المقامات العالية إلا بجذب، وإما بالسلوك على يد شيخ صادق لما في أعمال العباد من العلل، بل لو قدر زوال العلل من عبادته فلا يصح له الوصول إلى الوقوف على عين الشريعة لحبسه في دائرة التقليد لإمامه، لا يمكنه أن يتعداه ويشهدها إلا بالسلوك على يد شخص آخر فوقه في المقام من أكابر الصادقين (ورقة رقم 81).

أما عن مسألة ضرورة الشيخ بالنسبة للمريد، وهي مسألة قديمة ثارت في الأندلس في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م، وكانت موضوع مناظرات شارك فيها الفقهاء والصّوفية بالأندلس، ثم رفع أبو إسحاق الشاطبي سؤالا يستطلع فيه رأي بعض أعلام مدينة فاس في هذه المناظرات وكان السؤال موجه-

[17]- اهتم الشاطبي باستفتاء علماء عصره بالمغرب حول مسألة ضرورة الشيخ بالنسبة للمريد وذلك حين ظهر الخلاف في المسألة بين علماء الأندلس، وقد اشتهر في أواخر (ق 8هـ) ثلاثة فتاوى فضلا عن موقف الشاطبي القائل بضرورة الشيخ:وهي فتوى ابن القباب (ت 779هـ) وابن عباد الرندي (ت 792هـ) وقد أورد الونشريس هذين الفتوتين في المعيار، أما فتوى ابن خلدون بضرورة الشيخ في «مجاهدة الكشف والمشاهدة " فقد ضمنها في كتابه "شفاء السائل".

[18]- محي الدين بن علي بن محمد الطائ يالحاتمي المرسي المعروف بابن عربي (560-638 هـ) عالم مشارك وصّوفي ولد بمرسية ورحل إلى مصر والمشرق واستقر أخيرا بدمشق حيث توفي، ومن أهم مؤلفاته: الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية وجامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام - راجع المقري، نفخ الطيب: ج2/ص161-184- الحنبلي، شذرات الذهب: ج 5/ص190-202- معجم المؤلفين: ج11/ص40-42.

بالخصوص- إلى عالمين وهما ابن عباد الرندي[19] وأبو العباس القباب[20]، وقد أجاب كل من المسؤولين المغربيين بجواب على حدة احتفظ بهما- معا- الونشريسي في «المعيار»[21] ثم كانت هذه المسألة موضوع تأليف خاص لابن خلدون في رسالة تحمل اسم «شفاء السائل لتهذيب المسائل»[22].

تلقى «الشاطبي» جوابا في الموضوع من «القباب» وغالب الظن أن الجواب المثبت في «المعيار» يمثل رسالة أولى من «القباب» استحسن فيها حجج القائلين بوجوب الشيخ في سلوك طريق القوم[23]، وأكد فيها كلام الشيخ زروق[24] بأنه لا يكفي الاطلاع على الكتب المصنفة في هذا الباب وأن قول العلماء (الظاهريون) «بأن العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب ومفاتيحه بأيدي الرجال غير مقنع، لأن طريقة الصّوفية أشد غموضا من هذه العلوم»[25].

---

[19]- سبقت الإشارة إلى ترجمته.

[20]- هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي الشير بالقباب فقيه مالكي، ولد بفاس سنة (724هـ)، تولي الفتوى فيها، والقضاء بجبل الفتح، ثم اعتزل واختفى مدة، ثم عاد إلى التدريس والفتيا، وحجّ، ثم ولي الخطابة بالجامع الأعظم بفاس سنة 778هـ، وتوفي إثر ذلك، له عدة مؤلفات ينظر في ترجمته، ابن فرحون، الدِّيباج المذهب: ص64، التنبكي، نيل الابتهاج: ج1/100-102، الكتاني، سلوة الأنفاس: ص304-305- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2- مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1961م: ص205.

[21]- ينظر جواب ابن عباد عند الونشريسي' المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م: ج12/ص293-307 وجواب "القباب" في: ج11/ص91-96.

[22]- ابن خلدون، شفاء السائل في تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ط1-دار الفكر، دمشق، 1417هـ/1996م.

[23]- ينظر الونشريسي، المصدر السابق: ج11/ص 118.

[24]- هو الإمام المحدث الصّوفي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير برزوق ولقب برزوق لأن جده كان زرق العينين، ولد سنة 846هـ/1442م، له تصانيف عديدة، توفي سنة (899هـ/1493م)، ينظر في ترجمته، التنبكي، نيل الابتهاج: ج1/ص138-142، كفاية المحتاج: ج1/ص126، ينظر كذلك: القرافي، توشيح الديباج: الترجمة رقم: 27، السخاوي، الضوء اللامع: ج1/ص222، الكتاني، سلوة الأنفاس: ج3/ص225.

[25]- الونشريسي، المعيار: ج11/ص 118.

وقد أجاب «ابن عباد» إجابة تميل إلى رأي «القباب»، ركز فيه على جملة من المسائل يبدو أنها تشكل بعضا من عناصر المناظرة لدى «الشاطبي» وتتضمن محتويات النازلة:

- الاكتفاء بالكتب في سلوك طريق التّصوّف عوض الاعتماد على شيوخ التربية[26].
- الاحتجاج بفساد الزمان وغلبة الجهل على كافة البلاد وغياب الشيخ القدوة[27].
- القول بلزوم الشيخ يحتمل نوعا من الجبر المحض، في حين أن لسان الشرع اثبت الاختيار والكسب، وهذا منزع لم يذهب إليه أحد من أهل السنة[28].

وعن جواز تعدد أشياخ الطريقة رأى أبو راس أن "الذي عليه اصطلاح المتأخرين منهم عدم التعدد في شيخ التربية"[29]

وفقهيا، أقر ثبوت استعمال السبحة فقال: " كنت جالسا مع بعض الفقهاء ولساني يجاوبهم ويدي على حال الخدمة في السبحة، فقال لي أحدهم: ألك عقلان أم عقل واحد؟ فقلت (لي) عقل واحد، ولكنه على ثلاثة احتوى، وعند القسم الثاني استوى، والقسم الثالث هو اللوى، نوره ساطع للسالكين، غائب عن الغافلين، ومن هام في بحر الإدراك، نارت منه البصيرة والأبصار، ومن غرق في بحر الغفلة خسر في الدنيا والآخرة، فالعقل في حق السالكين ينقسم على ثلاثة أقسام: الأول في حق اللسان للجواب، والثاني في حق القلب بالتوجه إلى الله في كل شيء، والثالث هو من قسم الروح للمراقبة والمشاهدة، فالمراقبة بيان والمشاهدة عيان، وكل قسم من الثلاثة فيه مراتب العام، والخاص، وخاصة الخاصة، ولا يجوز إفشاؤه لغير السالكين، ولا يمكن توضيحه في الأوراق، وإنما هو علم موهوب من الله بواسطة شيخ المعرفة؛ قال ابن عطاء الله: فسبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولا يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه"، وإن السبابة لها عرق في القلب، فإذا تحركت في السبحة

---

[26]- الونشريسي، المصدر نفسه: ج12/ص295.

[27]- المصدر نفسه والصفحة.

[28]- المصدر نفسه: ج12/ص300-302.

[29]- الشيخ محمد أبي راس، كتاب الحاوي: ورقة رقم: 09.

كان ذلك من ذكر القلب، وهو أفضل من اللسان، وقول بعض العلماء لأنها مقمعة للشيطان، قال بعض أهل المعرفة: لا حكم للشيطان على العبد في تلك الساعة، لأن العبد متوجه إلى الله حينئذ، فلا يمكن منه الشيطان، وإذا ضم العبد الأنامل، وجعل يشير بالوحدانية كانت الأربعة المضمومة في حكم جميع الكائنات إشارة لفنائها، وبهذا يكون الاعتقاد بالقلب إلى الفنا[30].

وعن **أنواع الطرق ومسالك** التّصوّف

أجاب من قال لبعض أصحابه: طريقكم لا أصل لها بقوله: إن طريقة الأشياخ على أقسام، وإن أهل الظاهر منهم[31] ورثوا من سيد الخلق الرسالة، وأهل الباطن ورثوا النبوءة والرسالة أيضا، وهم الدالون على الله، والتصديق بهم على قدر المواهب الربانية، وكل مريد أحد على ما سبق له من الاتباع على أي طريق، شاهد نور يقينه من طرق الوسائل، لقوله عز وجل: ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [32]، والوسائل هم الأشياخ أهل التحقيق، وهم الخلفاء الراشدون على طريق الهدى فيما أمر به ونهى عنه (صلى الله عليه وسلم) لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾"[33]، وذكر الله فرض، قال الله: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي** ﴾[34]"، الآيـــــة، ﴿ **وَمَنْ يَعْشُ** ﴾[35] الآية، وقد جاء الإكثار منه في القرآن وتوضيحه في قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾[36].

واعلم أن العدد عند أهل التحقيق لا يذكر إلا فيما ليس فيه زيادة ولا نقصان، فبان به أن الله أمر العبد ان يذكره بعدد أيام العمر؛ قال معاذ بن جبل: "ما حدثني النبي (صلى الله عليه وسلم) قط بالفرائض، إلا ابتدأ بذكر الله "، وما جاء عنه في أخبار أسماء الله الحسنى، قد أخذها عن جبريل عن رب

---

[30]– الشيخ محمد أبي راس، المصدر السابق: ورقة 85-86.

[31]– المصدر نفسه: ورقة 86

[32]– سورة المائدة، الآية: 35.

[33]– سورة الحشر، الآية: 07.

[34]– سورة طه، الآية: 124.

[35]– "***وَمَنْ يَعْشُ*** عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" سورة الزخرف، الآية : 36.

[36]– سورة البقرة، الآية: 203.

العزة، وأعطاها (صلى الله عليه وسلم) لأبي بكر، وعلي (رضي الله عنهما) وأمر بإعطائها وبكتبها، يدل عليه قوله :"خير الرزق ما كفى، وخير الذكر ما خفي"[37]، وقال أيضا: "خير الصدقة السرية، وخير الذكر الخفي"، وقد قال (صلى الله عليه وسلم) "أكثروا من حرث الأسرار، قيل وما حرث الأسرار يا رسول الله ؟، قال ازرعوا أسماء الله في قلوب الخلائق، لعل السر ينبت في قلوبهم"، وسبب أخذه الأسماء قوله تعالى: "ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها"، فقال (عليه السلام):"يا جبريل أأدعوه بكلها ؟، فغاب عنه جبريل (عليه السلام) ثم جاء فقال: "يا محمد، أمرك ربك أن تأخذ من أسمائه خمسة –يعني من أسمائه الحسنى– يكون لك سرها بينك وبين حبيبك، والباقي منها للمهتدين من أمتك، فأمر (صلى الله عليه وسلم) بإعطاء الأسماء[38].

## إعطاء الأسماء على قدر الطبائع

وليكن العطاء على حكم الطبائع، لعل الدواء يكون نافعا، لأن الطبائع مختلفة، وأسماء الله مختلفة: فيها الحار والبارد، ومن لم يفرق بين أسماء الذات، وأسماء الصفات، وأسماء الخلاق، وأسماء الأفعال، ويقسم بين الحار والبارد كل قسم من الأقسام، لا يجوز له أن يعطي الأسماء، فلا يعطي الأسماء إلا من يعرف الطبائع الأربعة، وهو الذي يجوز الاقتداء به.

## ما يفعل الشيخ إذا أراد إعطاء الأسماء للمريد ؟

ومن شروط الشيخ إذا أتاه المريد وأراد أن يعطيه الأسماء، فلينظر إلى حروف اسمه واسم التلميذ، ويزنهما في ميزان الطبيعة، ويعرف ما يناسبهم من الاسماء الحسنى من ذات وصفات وأوصاف وأخلاق

---

[37]– (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَلامٍ السَّوَّاقُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى ، قَالَ : حَدَّثَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ لَبِيبَةَ ، عَنْ سَعْدٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : "خَيْرُ الرِّزْقِ مَا كَفَى ، وَخَيْرُ الذِّكْرِ مَا خَفِيَ "، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبو عبد الله، تحقيق: روحية عبد الرحمن السيوفي، معجم شيوخ الذهبي، ط1– دار الكتب العلمية، 1410 – 1990م.

[38]– الشيخ محمد أبي راس، المصدر السابق: ورقة 87.

وأفعال، بحيث لا تغلب طبيعة أخرى، وليبدأ باسم الذات لكل مريد، ولا يعطي الأسماء إلا بالفرد من ثلاثة إلى خمسة إلى سبعة إلى تسعة لا غير، ويأمر المريد بالجد وترك الغفلة، واتباع الفرض والسنة[39].

**من يبايع من الشيوخ ؟**

ولا يجلس أحد في رتبة البيعة إلا باثنتي عشر خصلة من ستة أنبياء: من آدم الحزن والسياحة، ومن يعقوب الشوق والصبابة، ومن يوسف العفة والأنة، ومن أيوب الصبر والتوكل، ومن موسى المناجاة والإخلاص، ومن محمد العلم والحلم، ومهما عري الشيخ عن هذه الأوصاف فبيعته حرام، ولا يكون المريد مريدا، حتى يركب جواد الإخلاص، ويعلفها من شعير النية، في مخلاة الورع، ويجلله بجلال الحياء، ويركبه بركاب الهيبة، ويسير في أرض التعظيم والجلال[40].

**أصل الخرقة[41]**

**والطريق الثاني** هي السنة، أخذت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي طريق الخرقة، وسببها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل على أربعين صحابيا في مجلس، فأنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه:

| | |
|---|---|
| أسكنت في سويدة | وفي أضلعي وبين |

[39]– المصدر نفسه والورقة.

[40]– نفسه.

[41]– يرى الصوفية أن في لبسِها معنى المبايعة، وأنها تمثل عتبة دخول المريد في صحبة الشيخ الذي يتولى تربيته وتهذيب أخلاقه وتقويم سلوكه،

وتسمى كذلك" :لباس الفتوة"، و"المرقعة "و"الدلق"، ويكون من قطعة واحدة أو مرقعًا، ويسمَّى" بالدلق في هذه الحال، وإذا كان من ألوان مختلفة يسمى" الدلق الملمع"، نظر: أبو حفص عمر السهروردي، عوارف المعارف، مؤسسة الحلبي وشركائه، القاهرة، 1968م: ج 5، ص 110 – 114، عبدالرازق القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، تحقيق سعيد عبدالفتاح، ط1–دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م: ص 442 – 243.

| أحداقي | أطباقي |
| --- | --- |
| لقد لسعت حية الهوى كبدي | فلا طبيب لها ولا راقي |
| إلا الحبيب الذي شغلت به | فعنده راحتي وترياقي |

فاهتز (صلى الله عليه وسلم) حتى سقط الرداء عن منكبيه، ثم أخذه وقطعه أربعين قطعة، للتبرك بها، فكانت الخلفاء بعده إذا تخلق ثوب أحدهم طرحه، فإذا أتاه مريد يريد الارتقا، أعطاه من ذلك الثوب قطعة، فهذا سبب الخرقة، وعطلت في زماننا، وإنما عمت طريق الأسماء[42].

**والطريق الثالث** المندوب، هو طريق التقسيس، وقد فعلها عمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة، فكانت الأشياخ خلفا عن سلف تقسس رأس المريد، وهو طريقة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي[43] وأصحابه إلى الآن.

---

[42]– يكاد يُجمِع أهل الطرق من مشايخ التصوف على وراثة لبس "الخرقة" بالسند مسلسلاً إلى الإمام عليٍّ – رضي الله عنه، فالسند حافظ لأهلها، ومانع للدخلاء والمدَّعين، كما أنه يُعلِي من مقام الخرقة، ويُكسِبها الشرعية الوراثية عن عهد الصحابة وسلف الأمة، ومن مشايخ الطائفة مَن احتج لها بالسنَّة، فقد ذكر محمد بن طاهر في كتابه فقال" :**باب السنة في لبس الخرقة من يد الشيخ"**، فجعل هذا من السنة، ينظر: ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد الأنصاري، طبقات الأولياء: تحقيق: نور الدين شدية، ط2– مكتبة الخانجي: القاهرة، 1994، ص79.

[43]– هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي السّملالي الحسني (807 هـ – 870 هـ / 1404 – 1465)، الشهير بسيدي ابن سليمان، نسبة إلى جده الثاني سليمان، كان رضي الله عنه من العلماء العاملين، والأئمة المهتدين، وممن جمع بين شرف العلم والعمل، والأحوال الربانية الشريفة، والمقامات العلية المنيفة، والهمة العالية السماوية، والأخلاق الزكية الرحمانية، والطريقة السنية من أعلام التصوف، إليه انتهت الطريقة الشاذلية في عصره، ينظر: عباس بن ابراهيم السملالي التعارجي، إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1– 2010م: ج 2/ص14

**والطريق الرابع** وهي بدعة مندوبة، وهي الوظيفة وأمرها قريب، وأول[44] من ابتدعها الشيخ عبد العزيز النبتيتي من أصحاب الشيخ زروق، وقد مر أن صاحبها سره مفضوح، قال الشيخ أحمد: وليس هذا من كمال عقولنا، ولا بسياسة فهمنا، وإنما هو ببركة الشيخ الأجل الأفضل خليفة من مضى من السلف، وإمام من بقي من الخلف: سيدي أحمد زروق، ولا توجد حقيقة الأشياء إلا من رب الأشياء، لأن من نظر الأشياء من رب الأشياء عرف، ومن نظر الأشياء من الأشياء تلف.

ومن خلال مسائل هذا المبحث يتضح لنا أن اللمسة الصوفيّة لدى "أبي راس الناصر" كانت على علم وبصيرة، فجمع بين الفقه والتّصوّف، واحتكم في تصوّفه إلى القرآن والسنّة، وأعطى التّصوّف صبغة فقهية فتحت الطّريق للوفاق بين الفقهاء والصّوفيّة، وبذلك يكون قد قام بدور التّحكيم والمصالحة بين الفقه والتّصوّف في عصره. على أساس نظرية استواء السّر والعلن وملاءمة الباطن للظّاهر، وتكامل الشّريعة والحقيقة.

- **المبحث الثالث من هذا الكتاب. الأولياء:**

أهم المسائل التي عاج المؤلف في هذا المبحث تعريفه لمقام الولي، وهل ل للأولياء تصرف بعد الموت، مع الإشارة إلى مراتب الأولياء: الأبرار، والأوتاد، والنقباء، والقطب والغوث، حكم من طعن في السادات الصوفية الأقطاب، وغيرها من المسائل التفصيلية المتعلقة بهذا المبحث.

**وحول تعريفه للولي؟**

**فصـل** في الولي: قال الخفاجي[45]: هو فعيل بمعنى فاعل لأنه موال لله، أو بمعنى مفعول لأن الله تعالى[46] تولى أمره، وله معنى عام وهو كل مسلم منقاد لله، وخاص وهو العارف بالله وصفاته (المواضب)

[44]– الشيخ محمد أبي راس، المصدر السابق: ورقة 87.

[45]– شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (977 -1069هـ/1569-1658م، قاضي القضاة، وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، ينسب إلى قبيلة خفاجة– إحدى القبائل الموجودة في مصر، ولد في «سرياقوس» وهي قرية في نواحي القاهرة، لأب

على طاعته، المجتنب للمعاصي، المعرض عن اللذات والشهوات، المستغرق في شهود الذات، المتحلي بكل خلق محمود، وله مراتب إلا أنه لا يشترط أن يكون له كرامات.

قال الدواني[47]: هو المتقي العارف بالله وصفاته، المتوجه بكلية قلبه إلى جانب قدسه.

قالوا: والمراد بالمعرفة ما كان عن كشف صريح صحيح بعد التهذيب، وملاحظة ذاته وصفاته في كل أفعاله "

وعند الصوفية هو الفاني في الله، الباقي به، والفناء الاستغراق في مشاهدته القلبية حتى لا يشعر بغيره حتى بنفسه كأبي إسحاق الجبنياني، وعدم شعوره هو انتهاء السير إليه، والبقاء به لكونه مظهرا لأفعال الله تعالى ومرادته من غير اختيار والمتقي صفة كاشفة، أو المراد بها معنى خاص لأن المتقي اسم فاعل من الوقاية وهي الصيانة، وفي العرف من يقي نفسه عما يضره في الآخرة وله مراتب: أولها: التوقي من العذاب وهو معنى ( وألزمهم كلمة التقوى)-وثانيها: تجنب الإثم وهو معنى (ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا )- وثالثها: أن يتنزه عما يشغله عن الحق وهو معنى (اتقوا الله حق تقاته).

وقال الخفاجي في موضع أخر: (الولي) معنى يعم كل مؤمن، وأخر يختص بمن أخلص لله مولاه أمره، وأفاض عليه ما فضله به على غيره من أسرار ومعارف إلهية أنار بها بصيرته حتى شاهد صنعه، وتنكشف لنفسه (القدسية) خفايا الملك والملكوت وهي مرتبة جليلة، وكل نبي ولي ولا عكس، وقيل ولاية

---

من كبار علماء عصره، ورحل إلى بلاد الروم، واتصل بالسلطان مراد العثماني فولاه قضاء سلانيك، ثم قضاء مصر، ثم عزل عنها فرحل إلى الشام وحلب وعاد إلى بلاد الروم، فنفي إلى مصر وولي قضاءها، ثم استقر فيها إلى أن توفي سنة (1069هـ/ 1659م). ينظر: المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت: ج1/ص331، الزركلي، الأعلام: ج1/ص 238.

[46]- المصدر نفسه: ورقة رقم: 49.

[47]- جلال الدين الدَّوَّاني (830- 918-هـ/1427-1512م) هو قاض وفيلسوف فارسي، هو جلال الدين محمد بن أسعد كازروني الصديقي الدواني. ولد في دوان (من بلاد كازرون)، وسكن شيراز، وولي قضاء فارس وتوفي به، من مصنفاته «رسالة في إثبات الواجب» تحتوي على مسائل من كل علم، ينظر في ترجمته: الزركلي، الأعلام: ج6 /ص32 – 33.

النبي أفضل من نبوءته كما أن نبوءته أفضل من رسالته، ولا يلزم منه تفضيل الولي على النبي كما توهم هو في شرحه لخطبة الشفاء.

ووجه كون النبوءة أفضل من الرسالة، لأن النبوءة اتصال طرف بالله والرسالة واسطة بينه وبين الخلق، وبهذا الاعتبار كانت أفضل كما في قواعد القرافي هـ منه في عد أبواب الشفا.

**وعن كرمات الأولياء قال أبو راس**

"واعلم أن بعض الأولياء يعطه الله قلب الأوصاف فيأخذ الكأس من الخمر فلا يصل إلى فيه إلا عسلا أو ماء أو سكر، وذكر ابن ظفر في كتابه **إنباء نجباء الأبناء**[48] أن الحارث المحاسبي كان معصوما من أكل الحرام، فكان إذا مد يده إلى طعام في شبهة تحرك له عرق، فيعلم أنه غير حلال فيمسك، وانظر ابن خلكان في حرف الحاء".

وقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني[49]: "إن المريد لا يجيب قط من عذله إلى غير الذكر من زوائد العلوم ونوافل العبادات...إلخ "، فيه موافقة لما وقع لشيخ الصوفية أبي الحسن الطيار فإنه دخل المسجد مع جماعة من أصحابه فوجد الولي الصالح أبا الحسن الرندي جالسا فيه فأمرهم بصلاة تحية المسجد،فقال الطيار: ولذكر الله أكبر، وتحاجا حتى شاع ذلك في البلد، وانتهى إلى الأمير فجمع العلماء واتفق رأيهم على نفي الطيار وأصحابه من البلد، فتفاهم الأمير، ومحل هذا عندهم إذا كان أخذ ذكر الله عن شيخه على سبيل السلوك وأما على سبيل التبرك فيفعل غيره اتفاقا، انظر الشعراني[50].

**للأولياء تصرف بعد الموت:**

---

[48]- محمد بن أبي محمد بن مضفر المكي الصقلي، أنْبَاءِ نُجَبَاءِ الأبْنَاءِ، دار الآفاق الجديدة 1400هـ/1980م

[49]- الإمام عبد الوهاب الشعراني (ت 973هـ/1565م) . مصادر ترجمته في تذكرة أولي الأباب: ص84، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للإمام نجم الدين الغزي: 176/3، دائرة المعارف الإسلامية: ج 311/13 مادة الشعراني، فهرس الفاهرس: ج 1079/2، طبقات الشاذلية للشيخ الحسن الكوهن: ص 160، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ج255/8.

[50]- أبو راس، كتاب الحاوي: ورقة 39.

واعلم أن للأولياء تصرفات بعد الموت من أجل أن الله (يغير عنهم) في أنه إذا توسل أحد بهم قبل توسله وفي حاشية البخاري للعارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن الفاسي نفعنا الله به عقب كلام الأبي ما نصه: هذا ما يظهر من أمور خارجة عما ذكر من ظهور برهان من تعدى على زاوية أو روضة فذاك أمر خارج عن الفتوى وغيره من الله على أوليائه لا تحد بقياس ولا تنضبط بميزان شرعي ولا قانون عادي" انظر تمامه.

وقال بعضهم: إنما قيل لنوع من الأولياء بدلاء لأن أرواحهم تتشكل بعد موتهم، فعلى هذا لا تخلى من تصرف لأن الأولياء إنما هم بالله أحياء أو أموت، ولذا جوز الشيخ السنوسي وغيره التوسل بهم وما ذلك إلا أن الله تعالى يقضي للمتوسل كرامة لأوليائه نفعنا الله بهم أمين.

وإذا كان هذا في الولي فأحرى النبي ولذا قال الشهاب الخفاجي: ما دام صلى الله عليه وسلم بين أظهر أمته فهم آمنون من عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ونحوه كما قال تعالى:"وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم"، ورحمة لهم في مماته لتقدمه صلى الله عليه وسلم[51] فرطا لهم، وبه فسر قوله تعالى (وبشر الذين أمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم).

وقد قال عمر في استسقائه: "اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك..." يعني العباس، فمطروا من ساعتهم وفي هذا كله دلالة على عدم انقطاع التي منحها الله نبيه صلى الله عليه وسلم الدنيوية والأخروية بموته صلى الله عليه وسلم[52].

- **المبحث الرابع من هذا الكتاب. الفتاوى:**

قيد في هذا المبحث العديد من الفتاوى الصادرة عن مشاهير علماء معاصرين له وآخرين متقدمين عليه، وأخرى طرحت عليه، ويلاحظ في بعض الحالات التي يحرص فيها أبو راس على ذكر أجوبة عدد من الفقهاء حول سؤال واحد، تداخل الأجوبة مما لم يسمح لنا التمييز بالقدر الكافي ما

[51]– المصدر نفسه: ورقة 50.

[52]– المصدر نفسه: ورقة 51.

يعود إلى كل فقيه منهم، وفي حالات أخرى يتعقد فيها الجواب عندما يحرص صاحب «الحاوي» على التدخل ليقدم تعليقاً أو إضافة، فقد يتم ذلك بأسلوب لا يمكن تَبَيّنُ حدود هذا التدخل، وأما أجوبته فهي قليلة، وإن وجدت نجدها تكتسي صبغة الاختصار إلى أن تصل إلى درجة الإخلال، كما أنه أكثر من إثبات فتاوى العلامة الشيخ عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي (ت1091هـ/1680م)، أما عن مواضيع الفتاوى التي أثبتها "أبي راس" فهي تتعلق في معظمها بالمسائل التعبدية، وبسلوك المتصوفة، والقليل منها له علاقة بمسائل النكاح، والطلاق، والمرأة، مسألة تضمين الراعي، ومسائل الأيمان، والإقطاع ... وغيرها من المواضيع.

ومن جملة المسائل التي أثبتها أبا راس للشيخ **عبد القادر الفاسي** (ت1091هـ/1680م)، في هذا المبحث ما سئل عنه بما نصه:

"الإمام المحقق الدراكة المدقق أراك الله أملك وختم بالحسنى عملك، وأبقاك موضحا لمنهاج الدين وأخذ إليها بأعضاد المسترشدين.

جوابكم سيدي فيمن قال من الأولياء قيل لي أو أذن لي على مذهب الصوفية[53] بحيث إذا سئل عن ذلك أبان عنه بما يدفع الإبهام ويحسم مادة الإيهام حسبما هو مفسر كذلك عند القوم، والحالة أن القائل ممن عرف بالخوض في طريقهم واشتهر بالانتساب إلى فريقهم.

وجوابكم أيضا عما اعتاده بعض الفقهاء من قتل قائل ذلك، هل هو على الإطلاق حتى يتناول كالشاذلي والجيلالي ممن صدر مثل ذلك منه أو هو خاص بقائلها من غيرهم واياتها من غير مذهبهم كالفسقة والكهنة؟ فتفضلوا في الكل بالجواب ولكم من الله الثواب.

فأجاب بما نصه:

"أما أمثال هذه العبارات فمعهودة في كلام أهل الصدق مع الله تعالى، الذين ظهرت أسرارهم وتكاملت أنوارهم، وصفت بواطنهم من الأغيار، فلم تتشبث بها صور الآثار وكانت محلا ومظهرا لتنزلات

[53]- الشيخ أبي راس، كتاب الحاوي: ورقة 19.

الأقدار، ومعلوم عندهم ما يراد بتلك العبارات، ولكل فن اصطلاحات تدور بينهم فيها ألفاظ وكلمات يعرفها أهلها ويجهلها غيرهم ممن لا خبرة له بها وقد قال الشاذلي رضي الله عنه في شأن حزبه الكبير: ما ترتب منه كلمة إلا بإذن ربي وأمر من رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

قال شيخنا العارف بالله أبو محمد عبد الرحمن الفاسي في حاشيته على حزب الكبير:

يعني على وجه التلقي يقظة ونوما كما هو معلوم في حق أهل الله، وشواهده من الكتاب والسنة كثيرة، وناهيك بآية الوحي إلى أم موسى كما أخبر الله، وبموافقة الفاروق ربه في غير ما قضية، وبقضية تلقي الأذان نوما، وقضية قتال مانعي الزكاة، وجمع القرآن، وأخبار الفاروق عن الصديق بعد مراجعته بأن الله شرح لذلك صدره وعلمه من أجل ذلك أنه الحق، وهو عين الإذن تعنيه الصوفية وذلك في حق من فتق بشريته وتجوهرت نفسه كما يشير إلى ذلك الحديث الإلهي وهو: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه و بصرهن يعني وسائر قواه وحينئذ يكون العبد إن صمت فمع الله وإن نطق فبالله، وقد قال الله ( فتلقى أدم من ربه كلمات )، وفي الصحيح: أنه كان فيمن كان قبلكم محدثون- وفي رواية مكلمون- من غير أن يكونوا أنبياء، وإن يكونوا في أمتي فعمر منهم ..[54]

**ونشير كذلك إلى سؤال الشيخ عبد القادر الفاسي** عن أرض صرفها بعض الملوك المتقدمين على رجل منذ سنين كثيرة، فلما توفي تركها لأولاده، فبقوا يستغلونها إلى أن ماتوا، فبقيت لأولادهم كذلك، وظهائر الأمراء المتقدمين تعذر وجودها لقدم الزمن، ولم يتحقق الصرف، هل هو على وجه التمليك أو الانتفاع؟ ثم إن بنات من عقب الرجل المصروف عليه أردن أخذ نصيبهن منها، فهل لهن حق مع الأحفاد المذكورين؟ أم لا مدخل للبنات مع الذكور في الصرف المذكور، لأنه كالوقف، ولأنه كذلك يستغلها أسلافهم قبلهم: الذكور دون الإناث.

فأجاب أن هذه الأرض المذكورة إن كان صرفها لمن هي بيده بظهير من الإمام، يقبض خراجها وعشرها، فليس في رقبتها ملك، وإنما فيها الانتفاع فقط، فلا يجوز بيعها ولا قسمتها إلا بإذن الإمام،

[54]- المصدر نفسه: ورقة 20.

فيكون إقطاع تمليك، وكلما تعددت الملوك وجب تجديدها،ولا ينتفع بها إلا من جددت له، ويختص بها من كتبت له، ولا يدخلها غيره، ولا تورث، وإن كان إقطاع تمليك فيما يصح للإمام فيه ذلك فهو تمليك للرقبة، فلمن ملكها أن يهب، ويبيع، ويتصرف، وتورث عنه، فإذا علم هذا، فلا بد من إثبات أن هذا الصرف كان على وجه التمليك، أو الانتفاع، لتبنى الأحكام على ذلك، فبقاؤها دون قسم ولا ميراث على وجه الاستقلال بيد البعض دون البعض ولا منازع من لدن الصرف حسبما في السؤال، ربما كان[55] دليلا لعدم التمليك، إن لم يكن في ذلك تقلب ولا حيف، والسلام[56].

**وفي ختام هذا الكتاب ذكر المؤلف طريقته في تأليفه بقوله:** بحمدك اللهم على الوصول إلى هذا المقام الذي كمل به الغرض وتم المرام على وجه تلخيص واختصار، وتخليص إلا من مسائل ذكرتها بطريق الانجرار، فجاء والمنة لله يروق الناظر، ويلذ النواظر، ويفحم المناظر، مع ما أقاسيه من شدائد الخطوب، وعوارض الكروب، وأهوال تبرق وترعد، وتقيم وتقعد، وتكلفت هذا فيها رغبة في ذخر أجري، ونصيحة أودعتها لغيري كما جاء في الآثار الصحيحة: إن الدين النصيحة، وأستغفر الله وأتوب إليه فيما اجترأت عليه، وتقدمت (إليه).

من خلال تصفحنا لمباحث هذا الكتاب نعتقد أن ما أنجزه "أبو راس" هو تقييد وليس تبييض نهائي، والفراغات ما زالت فيه كثيرة، ومسائله بحاجة إلى مراجع وتنقيح

قائمة المصادر والدراسات:

المصادر المخطوطة:

- الشيخ محمد أبي راس الناصر المعسكري، مخطوط كتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي (نسخة ملكية خاصة).

[55]- الشيخ أبي راس، كتاب الحاوي: ورقة 65.

[56]- المصدر نفسه: ورقة 66.

-محمد المهدي الفاسي، التحفة الصديقية من مشايخ الطبقة الثالثة من أتباع الجزولي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك537.

- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973م.

- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد الأنصاري، طبقات الأولياء: تحقيق: نور الدين شدية، ط2- مكتبة الخانجي: القاهرة، 1994م.

- ابن حزم، الإمام عليّ بن أحمد بن سعد بن حزم (ت456هـ/1064م)، المحلى في الخلاف العالي في فروع الشافعية، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الصديق، الطائف، (د.تا).

- ابن فرحون، القاضي إبراهيم بن نور الدِّين (ت799هـ/1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق، مأمون محي الدين الجنان، ط1- دار الكتب العلمية، بيروت 1417هـ/1996م.

- ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن أحمد(كان حياً سنة 1014هـ/1605م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتنى بمراجعة أصله محمد ابن أبي شنب، وقدم له عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1985-1986م.

- أبو راس الناصر، ذكر هذا الكلام في تصديره لــ"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د.تا).

- ابن خلدون، شفاء السائل في تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ط1-دار الفكر، دمشق، 1417هـ/1996م.
- التنبكتي، أحمد بابا (ت1036هـ/1626م)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 2000م.

- التنبكتي، أحمد بابا (ت1036هـ/1626م)، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، تحقيق عليّ عمر، ط1- منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1423هـ/2004م.

الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف: ج2/ ص167- د أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.

- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله بن قايماز الذهبي، معجم شيوخ الذهبي، تحقيق: روحية عبد الرحمن السيوفي، ط1- دار الكتب العلمية، 1410 – 1990م.
- السخاوي؛ محمد بن عبد الرحمن بن محمد، شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، دار الجيل بيروت 1412هـ/ 1992م.
- السهروردي، أبو حفص عمر ، عوارف المعارف، مؤسسة الحلبي وشركائه، القاهرة، 1968م.

- السملالي عباس بن ابراهيم التعارجي، إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1- 2010م.

- الصقلي محمد بن أبي محمد بن مضفر المكي الصقلي ، أنْبَاءِ نُجَبَاءِ الأبْنَاءِ، دار الآفاق الجديدة 1400هـ/1980م

- القاشاني، عبد الرازق، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، تحقيق سعيد عبد الفتاح، ط1-دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.

- القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، دار الغرب الإسلامي 1983م.

- الكتاني، الشريف أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس (ت1345هـ/1926م)، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصّلحاء بفاس، تحقيق الدكتور عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، تقديم الدكتور إدريس الكتّاني، ط1- دار الثقافة، الدار البيضاء، 1425هـ/2004م.

- المارغني، إبراهيم بن أحمد المارغني التونسي، دليل الحيران على مورد الظمآن، تحقيق جمال السيد رفاعي الشايب، ط1- المكتبة الأزهرية للتراث، 2011م: ص11.

- الملالي عبد الله، كتاب المواهب القدسية في المناقب السنوسية، خزانة محمودي البشير، ولاية معسكر، الجزائر: ورقة رقم 82-128، فهرس الفهارس.

- معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب)، لعمر رضا كحالة، طبعة دمشق1961م.

- نويهد عادل، معجم أعلام الجزائر من الفتح إلى الوقت الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليق والترجمة، 1980م.

- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي(ت914هـ/1508م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م.

- **ARNAUD**, ***Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed*** .... (**Alger**, **1885**, **in-8°**, **VIII**.